

الأيديولوجيا الزائفة

أن الأيديولوجية إنما هي عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر، وأن عن ادراك خاطيء. فإن القوى المحركة الحقيقية التي تحمله على النشاط تظل مجهولة بالنسبة اليه، والا لما كانت العملية عملية أيديولوجية. ولذا يصنع لنفسه تصورات عن قوى حافزة كاذبة أو ظاهرية. وبما أن الكلام يتناول عملية التفكير، فإنه يستخلص المضمون وشكله على السواء من التفكير الصرف، اما من تفكيره بالذات، واما تفكير اسلافه. وهو يعنى بوجه الحصر بمادة تفكيرية، وهو يعتقد صراحة ان هذه المادة وليدة التفكير، وهو على العموم لاينصرف الى دراسة أي مصدر آخر، اكثر بعدا ومستقل عن التفكير. فإن هذا الموقف من المسألة يبدو له بديهياً لأن كل عمل يبدو له مرتكزا في آخر المطاف على التفكير، أذ انه يتحقق بواسطة التفكير. أن الأيديولوجي التاريخي (والتاريخي هنا يعني مجرد تعبير جامع يشمل المفهوم السياسي والحقوقى والفلسفي واللاهوتي – وبكلمة، جميع الميادين المتعلقة بالمجتمع لا بالطبيعة) يجد تحت تصرفه في كل ميدان من ميادين العلوم مادة معينة تشكلت بصورة مستقلة من تفكير الأجيال السابقة وأتبعته سبيلا مستقلا، خاصا بها من التطور في أدمغة هذه الأجيال المتعاقبة واحداً تلو آخر . يقينا انه من الممكن ان تؤثر ايضا في هذ التطور، كأسباب مرافقة، وقائع خارجية تتعلق بهذا أوداك من الميادين، ولكن هذه الوقائع، كما يفترض ضمنا، هي مع ذلك مجرد ثمرات عملية التفكير، وعليه لانزال دائما في مضمار الفكر الخالص الذي يبدو كأنه هضم بسلامة حتى اشد الوقائع عنادا.

ان ظاهرية التاريخ المستقل لأشكال البنين السياسي والنظم الحقوقية والتصورات الأيديولوجية في اي ميدان كان، هي التي تعمي، قبل غيرها، اغلبية الناس. فأذا كان لوثر وكالفين (يتغلبان) على الدين الكاثوليكي الرسمي، وأذا كان هيغل (يتغلب) على

كانط وفيخته، وأذا كان روسو (يتغلب) بعقده الاجتماعي الجمهوري على الدستوري مونتسكيو بصورة غير مباشرة، فإن هذه العملية تبقى داخل اللاهوت والفلسفة وعلم الدولة، وهي تمثل مرحلة في تطور ميادين التفكير هذه ولا تتخطى أطلاقاً حدود التفكير. ومنذ أن ظهر، علاوة على هذا، الوهم البرجوازي حول خلود الأنتاج الراسمالي وكماله المطلق، منذ ذلك الحين، يعتبر (تغلب) الفيزيوقراطيين وآدم سميث على أنصار المركنتيلية أنتصاراً خالصاً للفكر، لا انعكاساً في ميدان التفكير للوقائع الاقتصادية المتغيرة، يعتبر انه الفهم الحقيقي، الذي تم بلوغه في آخر الامر، للظروف الفعلية القائمة في كل مكان دون أي تغيير. ينجم مما سبق انه لو ان ريتشارد قلب الاسد وفليب - أوغست طبقا حرية التجارة بدلا من ان ينجرا الى الحروب الصليبية، لأمكن تجنب ٥٠٠ سنة من الفقر والجهل. واني اعتقد اننا جميعنا اولينا هذا الجانب من القضية الذي لم استطع ان المسه هنا الا لمساء، قدراً من الاهتمام اقل مما يستحق. وهذه حكاية قديمة. دائما في البدء لا يهتمون بالشكل بسبب المضمون. وكرر انني اقترفت هذا الخطأ بنفسى، وكان هذا الخطأ يفتأ عيني دائماً (Post festum) ولهذا لست بعيداً وحسب عن توجيه اللوم اليك بالارتباط مع هذا - فليس لي أي حق في هذا لاني اذنبت قبلك في الامر نفسه، بل بالعكس، - ولكني وددت مع ذلك لو الفت انتباهك الى هذه النقطة من اجل المستقبل.

وبالارتباط مع هذا، يوجد أيضا تصور سخييف عند الايديولوجيين. فنحن لانقر بالتطور التاريخي المستقل لمختلف الميادين الايديولوجية التي تضطلع بدور في التاريخ، فننكر بالتالي كل امكانية لتاثيرها في التاريخ. وفي اساس هذا،يقوم تصور سطحي، غير دياكتيكي، عن السبب والنتيجة يعتبرهما قطبين متضادين احدهما للآخر ابدأ و دائماً، ويغيب عن البال كلياً التفاعل بينهما. ان هؤلاء السادة ينسون في كثير من الاحيان، قصداً وعمداً تقريباً أن الظاهرة التاريخية، التي تولدها بالاحرى اسباب من طراز آخر هي في آخر المطاف اسباب اقتصادية، تصبح على الفور بدورها عاملاً فعالاً، ويمكنها ان تؤثر بالمقابل في البيئة المحيطة وحتى في الاسباب التي ولدتها. بارت، مثلا ،بصدد المرتبة الدينية والدين. فقد أعجبنى جداً كيف

صفيت حساب هذا الكائن السافل الى درجة لا تصدق. وهذا الكائن يعينونه استاذ التاريخ في لبيزيغ، مع انه كان هناك العجوز فاكسموت، وهو والحق يقال، رجل ضيق الافق مثل بارت، ولكنه رجل من طراز آخر تماماً، ويمتلك ناصية الوقائع بصورة ممتازة.

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في كتاب لفرانتس مهريينغ في عام ١٨٩٨ في شتوتغارت

وصدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في مؤلفات ماركس وانجلز، الطبعة الاولى، المجلد ٢٩، عام ١٩٤٦

المصدر المعتمد: مختارات ماركس انجلز الجزء الرابع ص١٦٨ – ص ١٧٤
ترجمة الياس شاهين

جهة الاصدار: دار التقدم موسكو

سنة الاصدار: ١٩٨٧

النسخ الالكتروني: أبتهاال حسين